صفات الأصوات اللغوية في مقدمة معجم جمهرة اللغة بين المحافظة والتجديد

منير تيسير شطناوي *

ملخـص

تبحث هذه الدراسة فكرة اصطلاحية في الدرس الصوتي، تتمثل في محاولة ابن دريد تقديم تعريفات مختلفة لجملة من الصفات الصوتية هي: الجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق في الوقت الذي يلحظ فيه التكرار والنقل عن سيبويه عند كثير من علماء اللغة.

كشفت الدراسة دقة مقصد ابن دريد في تعريف مصطلحي الهمس والجهر، وتقاطعاته مع مفهوم علماء اللغة المتقدمين والمحدثين. وكذلك بيان استشعار ابن دريد لسعة المخرج مع المهموس، حيث يضعف الاعتماد والتمكين، وضيق المخرج مع المجهور حيث يزداد التمكين ويقوى الاعتماد.

وبين الباحث ما اقترحه ابن دريد من مفهوم جديد للرخاوة والشدة استناداً إلى الوجهة العضوية، فبين دقة تعريفه لهما بالنظر إلى الصوت في مخرجه، واعتماد هذه الهيئة للتفريق بين الشديد والرخو. كما بين الباحث علّة وصف ابن دريد للصامت الوقفي، بالصامت الذي تقدر على تشديده إن تلفظت به؛ فالوقف متمثل في الصامت الشديد في المرحلة الثانية من مراحل نطقه، ومرحلة الانتقال في البنية المقطعية مع المشدد.

ووضح الباحث مقصد ابن دريد بمنع جريان النفس مع المطبق، بما يتاح للصوت من حصر، وهو ما يعرف حديثاً بتشكل حجرة رنين يحصر فيها الصوت فيزداد تضخيمه وتفخيمه.

وتبدو قيمة محاولة ابن دريد في بحثه مفهوم هذه المصطلحات، في ضوء ما ظل علماء اللغة يتناقلونه عن سيبويه دونما تغيير أو إضافة زمناً طويلاً.

الكلمات الدالة: الأصوات اللغوية، جمهرة اللغة، ابن دريد، الجهر والهمس، الشدة والرخاوة، والإطباق.

المقدمـــة

تحدث ابن دريد في مقدمة معجمه: جمهرة اللغة، عن مخارج الأصوات اللغوية وصفاتها الصوتية، وجعل فاتحة كتابه معرفة هذه الأصوات، فقال:[(1)]

"فأول ما يحتاج إليه الناظر في هذا الكتاب ليحيط علمه بمبلغ عدد أبنيتهم المستعملة والمهملة، أن يعرف الحروف المعجمة التي هي قطب الكلام ومحرنجمه (مجتمعه) بمخارجها ومدارجها وتباعدها وتقاربها وما يأتلف منها وما لا يأتلف...".

وشرع ابن دريد يفصل الحديث عن مخارج الأصوات اللغوية التي استعملها العرب في كلامهم، والأصوات التي لا يتكلم بها إلا ضرورة، وقسم الحروف إلى مصمتة ومذلقة، ثم بسط الحديث في مخارج الحروف وأجناسها، وهو بكل ذلك يتكئ على ما تناقله اللغويون والنحاة في الدرس اللغوي.[(2)]

ولكن ابن دريد لما انتقل إلى ذكر الصفات الصوتية لهذه (الحروف)، قدم تعريفات لمفاهيم بعض المصطلحات، تبدو مغايرة للمفاهيم السائدة عند جمهور اللغويين والنحاة، على الرغم من نصه بالنقل عنهم، فهو وإن كان يذكر الهمس والجهر والشدة والرخاوة والإطباق إلا أن مفهوم هذه المصطلحات عنده لم يكن كما أورده علماء اللغة، ولا ترداداً لما ذكره النحاة الأوائل.

لقد قدم ابن دريد تعريفات لمصطلحات بعض صفات الأصوات اللغوية، استناداً إلى فهمه الخاص، على الرغم من قوله: "ذكر بعض النحويين..."[(3)] فهو يقدم مفهوماً مختلفاً تماماً عن المفهوم الذي قدمه سيبويه وردده عنه من جاء بعده.

وما محاولة ابن دريد هذه، إلا نزعة متفردة في الدرس

* قسم اللغة العربية، كلية العلوم والآداب، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن. تاريخ استلام البحث 2005/9/28، وتاريخ قبوله 2006/5/21.

الصوتي، وذلك لما يلحظه الدارس من تكرار ونقل عند اللغويين ولاسيما في صفات الأصوات، فتعريف الهمس والجهر مثلاً ظل متناقلاً عند اللغويين والنحاة كما أورده سيبويه في كتابه حتى قرون متأخرة، ويكفي للتدليل على هذا، ما نجده عند جمهور اللغويين نحو المبرد (ت 285هـ)،(4) وابن جني (ت 392هـ)(5)، ومكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ)(6)، والزمخشري (ت 538هـ)، وابن يعيش (643هـ)(7)؛ يقول إبراهيم أنيس:(8)

"وقد قنع الذين جاءوا بعد سيبويه بترديد ألفاظه بنصها، حين تحدثوا عن الجهر والهمس في الأصوات...".

ولم تكن صفتا الجهر والهمس الصفتين الوحيدتين اللتين قدم لهما ابن دريد مفهوماً ينم عن فهمه لا عن نقله، بل نقع على ذلك في جلّ الصفات الصوتية التي أوردها في مقدمة معجمه.

إن هذه النزعة، التي تبدو محاولة لفهم صفات الأصوات اللغوية من لدن ابن دريد، كانت الدافع لعقد هذه الدراسة؛ إذ حاول الباحث بيان دقة مفهوم ابن دريد لمصطلحات تلكم الصفات، وكشف فهمه لما قدمه علماء اللغة من قبله في تعريف صفات الأصوات، ومقايسة ذلك بما لدى النحاة في الدرس اللغوي، وما انتهى إليه علم اللغة الحديث في تعريف الصفات الصوتية للأصوات اللغوية.

أما منهجية الباحث في هذه الدراسة فكانت من خلال تقسيمها إلى جملة من المحاور، يقوم كل محور على الصفة الصوتية التي طرحها ابن دريد في مقدمة معجمه، ثم عرض مقاصد ابن دريد ومفهومه في تعريف كل صفة، ومقابلة ذلك بما لدى النحويين واللغويين من جهة، وما يقرره علم الأصوات الحديث من جهة أخرى. وهذه الصفات هي:

أولاً، الجهر والهمس:

يورد ابن دريد الأصوات المهموسة والمجهورة في العربية، ثم يعرف بهاتين الصفتين الصوتيتين، فيقول:(9)

"فالحروف المهموسة الهاء والحاء والكاف والخاء والسين والشين والثاء والصاد والتاء والفاء، وإنما سميت مهموسة؛ لأنه اتسع لها المخرج فخرجت كأنها متفشية. والمجهورة: الهمزة والألف والعين والغين والقاف والجيم والياء والضاد واللام والنون والراء والزاي والدال والذال والطاء والظاء والباء والواو والميم سميت مجهورة لأن مخرجها لم يتسع فلم تسمع لها صوتاً".

ثمة حقيقتان تلحظان على ما أورده ابن دريد في نصه هذا:

الأولى: لم يردد ابن دريد مفهوم الجهر والهمس كما ردده علماء العربية نقلاً عن سيبويه.

الثانية: اتفاق ابن دريد مع علماء اللغة المتقدمين في الأصوات المهموسة والمجهورة. فالمتأمل في الأصوات السابقة، يلحظ اتفاقه مع غيره من اللغويين في تصنيف الأصوات اللغوية إلى مجهورة ومهموسة.

يبدو مفهوم الهمس والجهر كما يطرحه ابن دريد للوهلة الأولى مختلفاً عما ذكره سيبويه وردده النحاة واللغويون من بعده، فسيبويه يعرف الجهر بقوله:(10)

"فالمجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت." ويعرف الهمس بقوله:(11)

"وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، وإذا أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه."

ويقول مكي بن أبي طالب القيسي:(12)

"ومعنى الحرف المهموس: أنه جرى مع النفس، عند النطق به لضعفه، وضعف الاعتماد عليه عند خروجه، فهو أضعف من المجهور... والحروف المجهورة: وهي أقوى من المهموسة المذكورة... ومعنى الحرف المجهور أنه حرف قوي يمنع النفس أن يجري معه عند النطق به لقوته وقوة الاعتماد عليه في موضع خروجه...".

إن مفهوم الجهر والهمس عند ابن دريد - بزعم الباحث- ينم عن فهم دقيق لهاتين الظاهرتين، ومما لا شك فيه، أن ابن دريد قد وعى مفهوم سيبويه للجهر والهمس، واطلع عليه، بل إن ابن دريد أجاد فهم حد الهمس والجهر كما طرحه سيبويه نفسه، ثم بنى عليه.

ثمة فرق بين المجهور والمهموس من وجهة نظر سيبويه يكمن في جريان النفس مع الصوت في المهموس وعدم جريانه في المجهور. ولا تتم هذه العملية كما يرى سيبويه إلا بتمكين موضع النطق وتقويته؛ لذلك كان المجهور أقوى من المهموس كما ذهب القيسي، أو أكثر اعتماداً.

وعليه يرى الباحث أن تمكين موضع النطق هو الاعتماد الذي يشبع مع المجهور ويضعف مع المهموس. وبقوة هذا الاعتماد التي تقتضي تمكين موضع النطق وتقويته يكون الصوت مجهوراً، وبضعف الاعتماد الذي يضعف معه تمكين موضع النطق يكون الصوت مهموساً.

يقول إبراهيم أنيس:(13)

"وقد تبين لنا في تعريف سيبويه أمران متميزان: عبر عن

أولهما بعبارة "إشباع الاعتماد" التي أراد بها أن يصف المجهور بأنه صوت متمكن مشبع فيه وضوح وفيه قوة،... فالمجهور أوضح في السمع من نظيره المهموس... وليس للاعتماد معنى في كلام سيبويه سوى عملية إصدار الصوت... أما في حالة المهموس فقد عبر عنها سيبويه بضعف الاعتماد أي عدم تمكن الصوت في أثناء جريانه في مجراه مما يترتب عليه قلة وضوحه...".

ويرى الباحث أن التمكين المشار إليه آنفاً، يتناسب طرداً مع ما تقدمه معطيات علم الأصوات الحديث التي تبين حال الوترين الصوتيين في ظاهرتي الجهر والهمس؛ إذ تتسع فتحة المزمار (فتحة ما بين الوترين) مع المهموس، وتضيق مع المجهور؛ يقول ياسر الملاح:[14]

"انفراج الوترين الصوتيين وسماحهما للهواء بالمرور، وعندئذ لا يحدث تذبذب فيصدر عندئذ الصوت المهموس.... اقتراب الوترين الصوتيين من بعضهما وسماحهما للهواء بالمرور ولكن من فراغ ضيق يؤدي إلى اهتزاز الأوتار وتذبذبها، وعندئذ يصدر الصوت المجهور."

وإذا نظرنا إلى ما قدمه ابن دريد في تعريف المهموس الذي يتسع معه المخرج، والمجهور الذي يضيق معه المخرج، فأغلب الظن أن سعة المخرج التي أشار إليها هي ما أحسه ابن دريد من اتساع عند نطق المهموس، ولكن أي اتساع هذا؟!

لم يقل ابن دريد أي عضو يتسع عند النطق بالمهموس، بيد أن ما يثبته علم الأصوات الحديث اليوم أن ثمة سعة في (فتحة المزمار) مع المهموس. وتضيق هذه الفتحة عند النطق بالمجهور.

وإذا كان ابن دريد لم يقل بهذا صراحة، فإنه لا يمكن حمل سعة المخرج وضيقها التي أشار إليها إلا على إحساسه هذا، إذ لا يمكن عد السين مثلاً صوتاً مهموساً مع القول باتساع المخرج، وهي أكثر الأصوات اللغوية تضيقاً في مخرجها الأسناني.

فالمخرج المقصود في مفهوم ابن دريد ليس موضع نطق الصوت، وإلا لَما كانت الأصوات نحو السين، الصاد، الخاء...أصواتاً مهموسة ذات مخرج متسع؛ إذ موضع نطق هذه الأصوات ضيق جداً.

غني عن القول أنه باتساع فتحة المزمار يضعف التمكين وعليه يضعف الاعتماد، كما أنه بضيقها يزداد التمكين ويقوى الاعتماد. وإذا كان سيبويه ومن تبعه قد أشاروا إلى الطرف الآخر وأعني به التمكين والاعتماد في تعريفهم للمجهور والمهموس، فإن ابن دريد قد أشار إلى الطرف الأول وأعني به سعة المخرج وضيقه في تعريف هاتين الصفتين.

وتبدو إشارة ابن دريد، إلى هاتين الصفتين الصوتيتين (الجهر والهمس) ذات بعد وظيفي في الجهاز النطقي؛ إذ باتساع المخرج كما قال ابن دريد يضعف التمكين والاعتماد كما قال سيبويه، ليكون الصوت مهموساً، وبضيقه يقوى التمكين والاعتماد، ليكون الصوت مجهوراً. يقول إبراهيم أنيس:[15]

"إن الوترين الصوتيين مع المهموس يبعد أحدهما عن الآخر، فينطلق النفس من بينهما دون حاجة إلى تحريكهما وإحداث ذبذبات بهما. هذا هو معنى جريان النفس مع المهموس ومنع جريانه مع المجهور."

وإذا كان ابن دريد لم يصرح بهذا الفهم صراحة إلا أن استشعاره النطقي يشي بهذا الفهم، تماماً كما وصف إبراهيم أنيس استشعار سيبويه للوترين الصوتيين من غير أن يصرح بهما.[16]

وعليه فقد سبق ابن دريد غيره في استشعار مقصد سيبويه، فعرف المجهور بالصوت الذي لم يتسع مخرجه، وعرف المهموس بالصوت الذي اتسع مخرجه، حتى كأنك تسمع له تفشياً، فالمخرج الذي يشير إليه ابن دريد ليس موضع نطق الصوت ومخرجه؛ لأن من الأصوات المهموسة ما هو غاية في ضيق المخرج، بل هو استشعاره لفتحة ما بين الوترين الصوتيين، لأن الأصوات المهموسة كما يجمع الدارسون المحدثون تتسع فيها فتحة المزمار من غير تذبذب الوترين، على نقيض الأصوات المجهورة التي تقترب معها الأوتار الصوتية وبهذا الاقتراب تضيق فتحة المزمار بين الوترين فيحف الهواء جوانبهما فيتذبذبان.[17]

ثانياً، الشدة والرخاوة:

يقول ابن دريد:[18]

"والحروف الرخوة الهاء والحاء والكاف والخاء والسين والشين والعين والغين والصاد والضاد والظاء والذال والثاء والفاء والزاي، سميت رخوة لأنها تسترخي في المجاري... والحروف الشديدة الطاء والشين والجيم وغير ذلك مما تقدر أن تشدده إذا لفظت به."

وإذا قابلنا مفهوم ابن دريد للشدة والرخاوة مع مفهوم النحويين من المتقدمين وجدناه مختلفاً عند الفريقين، فسيبويه يعرف الشديد والرخو بقوله:[19]

"ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والدال والباء؛ وذلك لو قلت: الحج، ثم مددت صوتك لم يجر ذلك.

ومنها الرخوة وهي الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاي والسين والظاء والثاء والذال والفاء وذلك لو قلت: الطس وانقض وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت."

ولإيضاح مفهوم هذين المصطلحين عند الفريقين، يرى الباحث أن سيبويه وابن دريد مصيبان فيما ذهبا إليه؛ وبيان ذلك في أمرين:

أحدهما، أن ابن دريد أراد أن يقدم مفهوماً جديداً للشدة والرخاوة غير الذي يقدمه سيبويه، فوصف الشدة والرخاوة من وجهة نظر أخرى تستند إلى الوجهة العضوية عند النطق، فإن كان الصوت مسترخياً في مجراه صار رخواً، وإن اشتد في مجراه صار شديداً. أما سيبويه فقد عرف بهاتين الصفتين استناداً إلى وجهة نظر أخرى كان معياره فيها هيئة الصوت لا هيئة العضو الناطق للصوت. فالرخاوة عنده هي جريان الصوت، أما الشدة فمنعه من الجريان.

لقد تعارف علماء العربية المتقدمون على مصطلحي الشدة والرخاوة، وكانوا يميزون بين الصوت الشديد والصوت الرخو، ولما وصف ابن دريد الأصوات اللغوية أبقى على المصطلح نفسه، فاستخدم الشدة والرخاوة دون تغيير، بيد أن المفهوم قد تغير عنده، فلم يقدم المفهوم نفسه الذي قدمه سيبويه والمبرد وابن جني وغيرهم للشدة والرخاوة، وإنما نظر ابن دريد إلى مفهوم مصطلح الرخاوة من الوجهة الفسيولوجية العضوية، ليجعل الصوت الرخو ما كان مسترخياً في مجراه. والصوت الشديد هو الصوت الذي يشتد في مجراه. والنظر إلى مجرى الصوت للتعرف على الصوت هو المقصود بالوجهة العضوية التي اعتمدها ابن دريد في التفريق بين الشديد والرخو.

أما كيف تسترخي الأصوات في مجراها لتكون رخوة أو احتكاكية؟ وكيف تشتد في مجراها لتكون شديدة؟ فقبل الإجابة عن هذين السؤالين، تجدر الإشارة إلى أن الاسترخاء في المجرى يختلف عن استرخاء المجرى، فثمة فرق بين استرخاء مجرى الصوت واسترخاء الصوت في المجرى. والذي أشار إليه ابن دريد هو استرخاء الصوت في المجرى، وليس استرخاء المجرى نفسه. فقد يكون الصوت مسترخياً في مجراه، ومجراه غير مسترخ. نحو نطق الأصوات الصفيرية مثلاً، فهذه الأصوات أصوات رخوة (احتكاكية)، بيد أن مجراها ذو تضييق شديد، أو هي ذات احتكاك شديد.

وحتى نصل إلى "إنتاج الاحتكاكيات يجب أن يكون التيار الهوائي قوياً إلى درجة كافية، وأن يكون مجرى الهواء ضيقاً على نحو كاف أيضاً... والاحتكاكيات الشديدة هي التي يصاحبها توتر عضلي كبير، وتعطي طاقة أكبر وهي الاحتكاكيات المهموسة..."[20]

فالصوت الرخو قد يستدعي جهداً عضلياً كبيراً في مجراه. ولكن القصد الذي أراده ابن دريد هو الإشارة إلى الصوت لا مجرى الصوت، فالصوت من وجهة نظر ابن دريد، بغض النظر عن تمكين أعضاء نطقه، إذا استرخى كان رخواً. وهذا الاسترخاء في المجرى إشارة إلى ضعف الصوت لا ضعف مخرج الصوت في الرخو إذا قيس بالشديد. وهو ما ذكره مكي بن أبي طالب القيسي لما تناول تعريف الرخو، فقال:[21]

"ومعنى الحرف الرخو أنه حرف ضعف الاعتماد عليه في موضعه عند النطق به، فجرى معه الصوت، وهذه الصفات من علامات الضعف...".

وهذا الضعف الذي يوصف به الرخو لا يعني بالضرورة ضعف الجهد المبذول في نطقه، ولا ضعف الأعضاء النطقية المنتجة له.

ولعل ما يشفع لهذا التخريج أن أبن دريد قصد بالاسترخاء الإشارة إلى صفة استمرار الجريان في مجرى الصوت، فالصوت الرخو صوت مستمر في مجراه، لا يعترض طريقه حبس تام يحول دون استمرار جريانه. وهذا الاستمرار يلتقي مع رخاوة الصوت، لأن هذه الرخاوة جعلت الصوت متدفقاً مستمراً. ويمكن تشبيه الحال بالسائل والصلب عند تحريكهما، فالأول يبقى مستمراً لرخاوته، والثاني يقع على دفعات لصلابته؛ ولذلك فرق بعض العلماء بين الصوت الرخو والصوت الشديد من هذه الوجهة. يقول المبرد:[22]

"ومن الحروف حروف تجري على النفس وهي التي تسمى الرخوة. ومنها حروف تمنع النفس وهي التي تسمى الشديدة."

وإذا انتقلنا إلى مفهوم الصوت الشديد عند ابن دريد نجده ذلك الصوت الذي تقدر أن تشدده إذا لفظت به. ومما يسترعي الانتباه أن ابن دريد على الرغم من تقابل مصطلحي الشدة والرخاوة، لم يقدم مفهوم الصوت الشديد على سبيل مقابلة الصوت الرخو، فلم يقل في الشديد ما اشتد في مجراه، ولا علة لذلك إلا أن هذا الفهم معلوم بالضرورة من الوجهة التقابلية. ومع ذلك سجل ابن دريد مفهوماً دقيقاً يكشف عن رهافة حسه في تذوق أصوات اللغة. فقال عن الشديد: "ما تقدر أن تشدده إذا تلفظت به" وأغلب الظن أن مقصده من القدرة على التشديد أمران:

الأول، بيان الشدة وما يستدعيه الصامت الوقفي من جهد عضلي في العملية النطقية، وهذا الجهد العضلي الذي تبدو

معه الشدة إذا أمكن المتكلم بيانه والقدرة عليه كان الصامت وقفياً أو شديداً. وليس معنى ذلك أن الصوامت الرخوة لا تحتاج إلى جهد عضلي في العملية النطقية، وإنما يرى ابن دريد أن الجهد المبذول مع الصوامت الشديدة أكبر؛ ولذلك عد بعض العلماء الشدة من صفات قوة الصوت(23)؛ لأن الشدة النطقية تظهر مع الصوت الشديد أكثر من الرخو، وهذه الشدة هي إشارة إلى المراحل النطقية التي يستدعيها نطق الصوت الوقفي؛ يقول فندريس:(24)

"ففي كل ساكن انفجاري إذاً ثلاث خطوات متميزة: الإغلاق أو الحبس، والإمساك الذي قد يكون طويل المدى أو قصيره، والفتح أو الانفجار."

والثاني، أن ابن دريد جعل نطق الصوت الوقفي مما يقدر المتكلم على تشديده، وإذا تأملنا مفهوم المتقدمين للصامت المشدد وجدناهم يرونه صامتين اثنين؛ الأول منهما ساكن والثاني متحرك. وعند نطق هذا الصامت المشدد (المضعف) يستدعي الانتقال من الصامت الأول "الساكن" إلى الصامت الثاني "المتحرك" وقفة من المتكلم، سبب هذه الوقفة الانتقال من بنية مقطعية إلى بنية مقطعية أخرى، فإذا أردنا نطق الدال في (عد) مثلاً، نقف بعد الدال الأولى، لتكون الدال الأولى القاعدة المقطعية الثانية للمقطع الأول عد (ص ح ص)، ولتكون الدال الثانية القاعدة المقطعية الأولى للمقطع (د) (ص ح). وبين هذين المقطعين وقفة لا بد منها.

هذه الكيفية المتحصلة في نطق الصامت المضعف (المشدد) بما يتخلله من وقف هي ذاتها التي لحظها ابن دريد في نطق الصامت الذي وصفوه بالشديد. ولا يخفى ما بين مصطلحي الشديد والمشدد من تقارب؛ إذ لا بد عند نطق /ت/، /ب/، /ق/، /د/... من وقفة ينقطع معها النفس، وهي ما يعرف بالمرحلة الثانية التي أشار إليها (فندريس) فيما مضى من مراحل نطق الوقفة؛ ولذلك وجد ابن دريد أن أقرب مفهوم للتدليل على الصامت الشديد الإشارة إلى القدرة على تشديده عند التلفظ به.

وهنا يرد السؤال: ألا يمكن تضعيف الرخو؟! أليس التضعيف قائماً في جميع صوامت اللغة؟

الجواب عن ذلك بالطبع: بلى. ولكن قبل توضيح إجابة هذا التساؤل تجدر الإشارة إلى أن ابن دريد قصد إلى رصد التشابه بين الصامت الشديد والصامت المشدد بما يعتورهما من مظاهر نطقية، وليس قصده المقدرة على تشديد الشديد، وانتفاء ذلك مع الرخو.

ومن ناحية أخرى فإنه في الوقت الذي يمكن فيه تضعيف جميع الصوامت اللغوية، لاحظ المتقدمون من علماء اللغة أن جريان الصوت ليس واحداً عند تضعيفها، فمن وجهة نظرهم ليس جريان الصوت مع الدال مثلاً كجريانه مع السين؛ إذ وجدوا أنه عند تشديد الصوامت اللغوية أو تضعيفها فإن الصوت مستمر مع بعضها وهي ما أطلق عليه الرخو، وغير مستمر مع بعضها الآخر وهي ما أطلق عليه الشديد.

والسبب من وجهة نظر ابن دريد في منع جريان الصوت مع الأخير، هو ما في هذا الصوت من شدة وجهد نطقي؛ ولذلك وصف ابن دريد الصوت الشديد (الانفجاري) بالصوت المشدد (المضعف) لانقطاع الصوت فيهما. وهذا ما نص عليه سيبويه من قبل بقوله:(25)

"ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة والقاف والكاف ... لو قلت الحج ثم مددت صوتك لم يجر ذلك. ومنها الرخوة وهي الهاء والحاء .. وذلك لو قلت الطس وانقض وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت".

إن منع الصوت من الجريان في الصامت الشديد كان بسبب ما في هذا الصوت من شدة. وهذا الفهم يلتقي مع فهمهم للصامت المشدد (المضعف) الذي هو ـ بظنهم ـ نطق صامتين اثنين الأول ساكن والثاني متحرك، ولا سبيل برأيهم إلى استمرار جريان الصوت مع الصامت المضعف، لأنه لابد من فاصل يفصل هذا الصامت المضعف الذي يرونه صامتين لا صامتاً واحداً طويلاً، بخلاف ما عليه كثير من الباحثين المحدثين اليوم.(26)

وبناء على ذلك فإنه يصح أن يقال سمى ابن دريد الأصوات الرخوة بهذا الاسم لاسترخائها في مجاريها وهذه الرخاوة تتحقق إن جرى الصوت معها. وسمى غيرها بالشديدة لما تستدعيه من شدة وجهد من جهة، وملاقاتها الصامت المشدد الذي يستدعي لحظة وقف في العملية النطقية من جهة أخرى. فالوقف متمثل في الصامت الشديد في المرحلة الثانية من مراحل نطقه (مرحلة الإمساك)، كما هو متمثل كذلك في نطق الصامت المشدد (المضعف) في مرحلة الانتقال من البنية المقطعية الأولى إلى البنية المقطعية الثانية.

أما الأصوات الشديدة والرخوة عند ابن دريد، فهي عين الأصوات التي ذكرها سيبويه، بيد أننا نجد الكاف رخوة عند ابن دريد، ونجد الشين شديدة تارة رخوة تارة أخرى.(27)

لا جرم أن الكاف العربية الفصيحة اليوم صوت شديد، وهذا الصوت يحدث عن حبس تام لتيار الهواء. يقول ابن سينا:(28)

"والحروف بعضها في الحقيقة مفردة وحدوثها عن

حبسات تامة للصوت أو الهواء الفاعل للصوت، يتبعها إطلاق دفعة... والحروف المفردة هي: الباء والتاء والجيم والدال... والكاف...".

وإذا كان حال الكاف كذلك فكيف عدها ابن دريد صوتاً رخواً ؟ أغلب الظن أن ابن دريد كان يصف كافاً أخرى غير الكاف المتداولة في العربية الفصيحة. وهذه الكاف هي التي حدثنا عنها سيبويه لما قال:(29)

"وتكون (حروف العربية) اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة...".

وهي التي وصفها ابن سينا بقوله:(30) "وأما الكاف التي يستعملها العرب في عصرنا هذا بدل القاف فهي تحدث حيث تحدث الكاف إلا أنها أدخل قليلاً والحبس أضعف."

وقد أطلق ابن سينا على هذه الكاف: الكاف الخفيفة.(31) ومفهوم هذه الخفيفة كما يراه ابن سينا، أنها: "تحدث بين حرفين فيما جانس كل واحد منهما بشركه في سببه."(32)

والإشارة إلى ضعف الحبس تشي بأن هذا الصوت قد اعتوره بعض المظاهر النطقية التي جعلت الحبس فيه ضعيفاً، حتى ساغ لبعض اللغويين كابن دريد أن يصف الكاف بالرخاوة؛ لما شابها من ضعف في الحبس.

وإذا أخذنا بمفهوم ابن دريد للصوت الرخو الذي عرفه بأنه الصوت الذي يسترخي في مجراه، فإن ضعف حبس الكاف يعد استرخاء في المجرى، مما سوغ له بوصفه صوتاً رخواً.

أما الشين فنجد ابن دريد يصفه بالرخاوة تارة وبالشدة تارة أخرى، وليس وصفه الشين بالرخاوة، إلا تماشياً مع وصف الشين العربية الفصيحة التي هي في حقيقتها صوت رخو. وهو بذلك يتفق مع جمهور اللغويين والنحاة في وصف هذا الصوت.

أما وصف ابن دريد للشين بالشدة، فهذا مما يسترعي الانتباه؛ فالشين العربية الفصيحة كما هو معلوم صوت رخو، لا يعوقه أدنى حبس؛ يقول ابن سينا:(33)

"وأما الشين فهي حادثة حيث يحدث الجيم بعينه، ولكن بلا حبس ألبتة، فكأن الشين جيم لم تحبس، وكأن الجيم شين ابتُدئت بحبس ثم أطلقت."

فالشين صوت مهموس رخو مخرجه الغار كما نص علماء اللغة. ولكن ابن دريد وصف الشين بالشدة. فما هذه الشين؟

لم يكن ابن دريد في غفلة عن هذا، فهو يعي أن صوت الشين في العربية الفصيحة صوت رخو وليس شديداً، وأغلب الظن أنه لم يقصد الشين الفصيحة؛ وذلك لأن مخرج هذه الشين التي يتحدث عنها ليس مخرج الشين الفصيحة، فهو يتحدث عن شين سبق أن وصف مخرجها أنه من اللهاة، يقول:(34) "ثم الجيم والشين من اللهاة".

ومعلوم أن الشين الفصيحة مخرجها من الغار أو الحنك الصلب، وهذا يدعونا إلى العودة إلى مفهوم اللهاة عند المتقدمين في معاجم اللغة، بدءاً بالخليل. يقول الخليل:(35)

"واللهاة: أقصى الفم. وهي لحمة مشرفة على الحلق، وهي من البعير الشقشقة. ويقال لكل ذي حلق: لهاة والجمع لهاً ولهوات."

وبالعودة إلى رتبة المخارج الصوتية عند الخليل(36) وجدنا المخرج اللهوي يقع بين المخرج الحلقي والمخرج الغاري، وإذا عرفنا أن الخليل يتتبع المخارج وفق تسلسلها، بدءاً من أعمقها مخرجاً، نخلص إلى أن المخرج اللهوي الذي قصده ابن دريد لصوت الشين هذا، هو ما بين الفم والحلق. وهذه الشين اللهوية صوت أقرب ما يكون للصوت المسموع من الرسم (ch) مع شيء من التعطيش والتفشي، وهو صوت شديد لا رخو، ولا رسم له في العربية الفصيحة.

والذي يقوي من هذا الاحتمال وصف ابن دريد لمخرجها أولاً، ونصه على اشتراكها مع الجيم في المخرج ثانياً. يقول ابن دريد:(37) "ثم الجيم والشين من اللهاة...".

وأغلب الظن أن هذا الصوت هو ما قصده سيبويه بقوله:(38)

"وتكون خمسة وثلاثين بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: ... والشين التي كالجيم..."

ويمكن الاستدلال على ما لحق هذين الصوتين (الكاف والشين) من تطور لغوي، ووصفه الشين مرة بالرخاوة ومرة بالشدة بما كشف عنه وصف ابن دريد لهما في مرحلة زمنية عاصرها وسمعها في وسطه اللغوي في القرن الرابع الهجري، فوصف ما كان شائعاً في الاستخدام وما كان فصيحاً في اللغة، وليس وصفه الشين بالرخاوة تارة وبالشدة تارة أخرى إلا من هذا القبيل.

ثالثاً، الصوت المطبق:

يرد مفهوم الصوت المطبق عند علماء العربية المتقدمين على غير وجه. جاء في كتاب العين:(39) "وكان الخليل يسمي الميم مطبقة؛ لأنها تطبق الفم إذا نطق بها".

فمفهوم المطبق عند الخليل غير مفهوم المطبق عند

سيبويه، وغيره من علماء اللغة. يقول سيبويه:[40]

"ومنها - الحروف - المطبقة والمنفتحة، فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء، والمنفتحة كل ما سوى ذلك من الحروف لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى. وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف...فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان وقد بين ذلك بحصر الصوت."

وإذا انتقلنا إلى ابن دريد وجدناه يحدثنا عن الحروف المطبقة بمفهوم آخر أقرب ما يكون إلى مفهوم الصوت الشديد أو الوقفي، يقول ابن دريد:[41]

"والحروف المطبقة: الصاد والضاد، والطاء، والظاء؛ لأنك إذا لفظت بها أطبقت عليها حتى تمنع النفس أن يجري معها."

يبدو مفهوم الإطباق عند ابن دريد مغايراً لمفهومه عند سيبويه من جهة، وقريباً من مفهوم الشدة من جهة أخرى. وقد مر بنا مفهوم الشدة والرخاوة عند سيبويه.[42] بيد أن الذي يسترعي الانتباه في تغاير المفهومين أنه لا خلاف بين الرجلين في الأصوات المطبقة، فقد اتفقا على أن الصاد والضاد والطاء والظاء هي الأصوات المطبقة في العربية.

وقبل مناقشة رأي ابن دريد تجدر الإشارة إلى أن سيبويه قال في مفهوم الشديد: "منع الصوت"، وقال ابن دريد في مفهوم المطبقة: "منع النفس". ومن هنا يبدأ التمايز بين المفهومين. أراد ابن دريد وصف نطق الأصوات المطبقة الأربعة بصورة أخرى مغايرة، فعند نطق الصوت المطبق لا بد من الإطباق عليه، وهذا الإطباق يتم من خلال ارتداد مؤخرة اللسان نحو الخاف وهو ما يسمى (التحليق) وارتفاعها نحو الطبق وهو ما يسمى (التحنيك)، لتكون فكرة الإطباق واحدة عند سيبويه وابن دريد.

أما منع النفس من الجريان، فإن الذي يفهم من كلام ابن دريد أن النفس يجري مع الأصوات المنفتحة ولا يجري مع المطبقة؛ فإذا أخذنا الصاد والسين مثالين، كان النفس وفق مفهوم ابن دريد جارياً مع السين؛ لأنه غير مطبق. وغير جار مع الصاد؛ لأنه مطبق. وإذا عرفنا أنه لا فرق بين الصاد والسين إلا بالتفخيم والترقيق، بدا لنا أن المقصود بجريان النفس هو حصر الصوت، ولا تناقض بين الحصر والجريان، لأن الحصر لا يعني الحبس، وإنما تشكيل موضع واسع يتجمع فيه الصوت أثناء جريانه دون إعاقة هذا الجريان؛ أي ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق وارتدادها نحو الخاف، ليكون الصاد النظير المفخم للسين، ويلحظ مع الأصوات المطبقة ارتفاع في مقدمة اللسان أيضاً، وبارتفاع مؤخرة اللسان ومقدمته تتشكل حجرة رنين مقعرة وسط اللسان يحصر فيها الصوت مما يزيد من فخامته وتضخيمه.

وهذه الحجرة الرنينية هي المسؤولة عما عبر عنه علماء الأصوات عندما عرفوا التفخيم بأنه صدى(غلاظ) في الصوت يمتلئ الفم بصداه[43]. وبتشكل هذه الحجرة وسط اللسان يغدو الصوت منحصراً، ليكون منع النفس الذي ذكره ابن دريد في الأصوات المطبقة هو الحصر، لذلك قدم ابن دريد الإطباق في هذه الأصوات على منع النفس، لأنه بتمام الإطباق يتم منع النفس، وليس العكس. أما جريان النفس مع هذه الأصوات فيحول دون التلفظ بهذه الأصوات مطبقة.

ولعل تعريف ابن دريد للصوت المطبق يذكرنا بدقة المصطلح الذي استعمله المتقدمون للدلالة على المفهوم المقابل للصوت المطبق، وهو الصوت المنفتح. فما الانفتاح إلا جريان النفس مع الصوت الذي يتأتى بانخفاض ظهر اللسان دون ارتفاعه، فلا يحصر الصوت، بل يجري بانفتاح ليكون مرققاً.

نتائج البحث

1. الكشف عن محاولة ابن دريد تقديم تعريفات مختلفة لجملة من المصطلحات الصوتية في الوقت الذي يلحظ فيه التكرار والنقل عن سيبويه عند كثير من علماء اللغة في مفهوم صفات الأصوات اللغوية.
2. بيان استشعار ابن دريد وإحساسه بما يحدث من اتساع مع المهموس وضيق مع المجهور، وهو ما يقرره علم الأصوات الحديث من حال "فتحة المزمار" في ظاهرتي الجهر والهمس؛ إذ تضيق هذه الفتحة مع المجهور وتتسع مع المهموس، وذلك بما أحسه من ضعف الاعتماد والتمكين مع المهموس، وزيادة الاعتماد والتمكين مع المجهور.
3. إبراز دقة مقصد ابن دريد في تعريف مصطلحي الهمس والجهر وتقاطعاته مع مفهوم المصطلحين عند سيبويه وعلماء اللغة المتقدمين من جهة، وما تكشف عنه معطيات علم الأصوات الحديث من جهة أخرى.
4. بيان ما اقترحه ابن دريد من مفهوم جديد في تعريف صفتي الرخاوة والشدة، استناداً إلى الوجهة العضوية، فقد بين الباحث دقة تعريفه لهاتين الصفتين بالنظر إلى الصوت اللغوي في مجراه في الجهاز النطقي، واعتماد هذه

الهيئة للتفريق بين الشديد والرخو.

5. خلص الباحث إلى بيان علّة وصف ابن دريد للصامت الوقفي، بالصامت الذي تقدر على تشديده إن تلفظت به؛ إذ يلتقي المشدد والوقفي فيما يستدعيه كلاهما من لحظة وقف في العملية النطقية؛ فالوقف متمثل في الصامت الشديد في المرحلة الثانية من مراحل نطقه، كما هو متمثل كذلك في نطاق الصامت المشدد (المضعف) في مرحلة الانتقال من البنية المقطعية الأولى إلى البنية المقطعية الثانية.

6. بين الباحث المقصود بجريان النفس الذي أشار إليه ابن دريد في الأصوات المطبقة، وأنه يعني حصر الصوت، أي ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق وارتدادها إلى الخلف، وبتشكل هذه الحجرة في وسط اللسان يكون الصوت منحصراً.

الهوامـش

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص 41، ومعنى قوله: ومحرنجمه: أي مجتمعه، احرنجم القوم أو الإبل: اجتمعوا، ويقال: حرجمتهم فاحرنجموا أي جمعتهم فاجتمعوا.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص45.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص 42.
(4) المبرد، المقتضب.
(5) ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص75.
(6) القيسي، الرعاية، ص 116.
(7) ابن يعيش، شرح مفصل الزمخشري.
(8) أنيس، الأصوات اللغوية، ص 120.
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص46.
(10) سيبويه، الكتاب، ج 4، ص434، وانظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص75.
(11) المصدر نفسه، ج4، ص434، وانظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص75.
(12) القيسي، الرعاية، ص 116، 117.
(13) أنيس، الأصوات اللغوية، ص 125، 126.
(14) الملاح، الأصوات اللغوية، ص33، 34.
(15) المرجع نفسه، ص 126.
(16) المرجع نفسه، ص 126.
(17) استيتية، الأصوات اللغوية، رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، ص 102.
(18) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص46.
(19) سيبويه، الكتاب ج1، ص434. وانظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص75.
(20) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص187.
(21) القيسي، الرعاية، ص 118، 119.
(22) المبرد، المقتضب، 230/1.
(23) القيسي، الرعاية، ص 117.
(24) فندريس، اللغة، ص48.
(25) سيبويه، الكتاب، ج4، ص434.
(26) انظر للتعرف على رأي المحدثين: شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية، ص 206، 207.
(27) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص46.
(28) ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص61،60.
(29) سيبويه، الكتاب، ج4، ص432.
(30) المصدر نفسه، ص75،74.
(31) المصدر نفسه، ص86.
(32) المصدر نفسه، ص 86.
(33) ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص 75، 76.
(34) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص45.
(35) الخليل، العين، ج4، ص88. ويقول ابن فارس: "واللهاة لهاة الفم، وهي اللحمة المشرفة على الحلق، ويقال: بل هو أقصى الفم. والجمع لهى." انظر أحمد بن فارس، مجمل اللغة، ج3، ص 796. وانظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص1905 وانظر: الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، ج61/4 يقول الصاحب بن عباد: واللهاة أقصى الفم" ويقول الزبيدي: "واللهاة من كل ذي حلق: اللحمة المشرفة على الحلق. أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم." انظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج5 ص 171. وانظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج4، ص390. ويقول مكي بن أبي طالب القيسي: "واللهاة: ما بين الفم والحلق." القيسي، الرعاية، ص 139.
(36) الخليل، العين 58/1.
(37) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص45.
(38) سيبويه، الكتاب، ج4، ص432.
(39) الخليل، العين، ج1، ص58. وانظر الأزهري، ج1، ص49.
(40) سيبويه، الكتاب، ج4، ص 436.
(41) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج1، ص46.
(42) انظر متن الهامش (19) تحت باب الشدة والرخاوة من هذا البحث.
(43) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج1، ص138.

المصادر والمراجـع

ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الضباع، 1970، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن جني، سر صناعة الإعراب، محمد حسن محمد إسماعيل، وأحمد رشدي شحاته، 2000، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ابن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير البعلبكي، 1987، دار العلم للملايين، ط1.

ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسن الطيان ويحيى مير علم، 1983، تقديم ومراجعة شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط1.

ابن فارس، مجمل اللغة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، 1986، مؤسسة الرسالة ط2.

ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، اعتنى به محمد عوض مرعب، وفاطمة محمد أصلان، 2001، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ط1.

ابن يعيش، شرح مفصل الزمخشري، عالم الكتب، بيروت، 1988.

الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، 1964، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

استيتية، سمير، 2003، الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل، ط1.

أنيس، إبراهيم، 1995، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية.

الخليل، العين، تحقيق عبد ا درويش، 1967، مطبعة العاني، بغداد.

الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،، تحقيق علي شيري، 1994، دار الفكر، بيروت.

سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، 1983، دار الكتب، القاهرة.

شاهين، عبد الصبور، 1977، المنهج الصوتي للبنية العربية، مطبعة جامعة القاهرة.

الشايب، فوزي، 1999، محاضرات في اللسانيات، منشورات وزارة الثقافة، عمان.

الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، تحقيق محمد آل ياسين، 1994، عالم الكتب، بيروت، ط1.

فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدوخلي ومحمد القصاص، 1950، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت.

القيسي، مكي بن أبي طالب، الرعاية، تحقيق أحمد حسن فرحات، 1996، دار عمار، عمان، ط3.

المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، 1963، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

الملاح، ياسر، 1990، الأصوات اللغوية، مركز الأبحاث الإسلامية، مؤسسة دار الطفل العربي.

The Features of Linguistic Sounds in the Introduction of *Jamharat Alloghah* Dictionary in Terms of Traditional and Modern Approaches

Moneer T. Shatnawi *

ABSTRACT

This study investigates a unique notion in phonetic study represented in Ibn-Durayd's presentation of a number of definitions of some phonetic features, like voice, voiceless, explosive and fricative sounds and emphatic, noting the fact that he draws heavily from Saybawyh.

This study also reveals the accuracy in Ibn-Durayd's definition of the two terms: vowels and consonants and its intersections with the definitions of this term by classical and modern linguists. Additionally, it also demonstrates Ibn-Durayd's recognition of the vocal cords, and his reference to the enlargement of the opening with vowels and the contraction of the opening with consonants.

The researcher also demonstrates what Ibn-Durayd suggested in terms of a new definition of stressed or non-stressed sounds, based on the organic destination. The researcher shows Ibn-Durayd's accuracy in referring to the place of articulation for sounds, and using this to differentiate between the stressed and the non- stressed sounds. Also, the researcher explains Ibn-Durayd's description of consonant stops as the consonant which you can stress in the process of pronunciation.

He also clarifies Ibn-Durayd's description of the obstruction of the air-stream with the closure, known as the vibration chamber in which the air stream is excluded. The value of Ibn-Durayd's contribution, is that he discussed different terms which makes him outstanding among other linguists, who repeated what Saybawyh said without modification.

Keywords: Linguistic Sounds, Jamharat Alloghah, Ibn Durayd, Voice, Voiceless, Explosive and Fricative ,Emphatic**.**

* Department of Arabic Language, Faculty of Sciences and Arts, The Hashemite University, Zarqa, Jordan. Received on 28/9/2005 and Accepted for Publication on 21/5/2006.